المركز العربي للمعلومات
L/R263a
S2M711

الوطن العربي
١٢ تشرين الأول ٢٠٠٣

عارف الريّس، الفنان المتمرد على استعباد إبداعنا بذلّ:

كل قواى تركع فى محراب العقل الذى أستقى منه أعمالى

حين التقينا فى منزله فى باريس كان عائداً من المملكة العربية السعودية، بعد أن أمضى فيها قرابة عشر سنوات، قدم خلالها أروع إبداعاته فى إقامة النُصب والمنحوتات التى تمجد الخالق وتغنى تطلعات الإنسان إلى الله، ممتلئاً بالهناءة الروحية، بعد أن حقق ما يمكن أن يعتبر تحدياً وتثبتاً لقدرته النحتية كواحد من الأفذاذ الذين استطاعوا أن يعبّروا بطاقتهم التشكيلية عن مدى قدرة النحات العربى المسلم على تجسيد أفكاره وتشييدها نحتياً وبشكل يربط التجريدى بالتعبيرى بالحسى إضافة إلى استلهامات حركة الحرف العربى الثرية كعضو أساسى يؤلف الحركة.

ولو أردنا أن ندرس الحوافز التى دفعت بعارف الريّس إلى نحت كلمة «الله أكبر» أو «الله نور السماوات والأرض» أو «يارب» لوجدنا أن الفنان يبدأ من نقطة أخرى هى غير حالة التبرير الشكلى إذ يرى: «أن الكلمة لها مضمونها فى معناها، وهى ليست بحاجة لأن تتجسم فى الشكل الذى تعنيه، بل دور الفنان أن يأتى بعمل جمالى منحوت عبر تأليف هذه الكلمة تأليفاً هندسياً متماسكاً من حيث النسب والأحجام مع بنائية نصبية هى عملية تحويل المنمنم من الكلمة والحرف إلى أبعد ما يمكن لخيال الفنان من إبداعه فى مجال التجسيم، مع الأخذ بعين الاعتبار تفاعل الحجم مع الفضاء والنور والمساحة».

أما اليوم وبعد ما يزيد على عشر سنوات على لقائنا الأول يقف عارف الريّس على رأس خمس وسبعين سنة من السعى المضنى وراء حقيقة كونية تمنحه تماسكاً واستقراراً كإنسان فيمنحها تجسداً وحضوراً كراء وفنان: من عالية حيث ولد إلى مدرسة عنيطورة إلى السنغال، فباريس، ففلورنسا، فالولايات المتحدة والمكسيك وأخيراً إلى عالية ثانية مثقلاً بتجارب العمر وباسم فنى تجاوز حدود الوطن إلى العالم العربى ومنه إلى حيث للفنون التشكيلية حضور فى العالم العربى الأوسع.

أما علامة الريّس الفارقة كفنان، فجدية فى البحث عن معنى يستمسك به، وجرأة فى التعبير عنه مهما بدا مستنكراً، وفى التنكر لخلافه مهما كان مكرساً. وأما حاديه فى كل ذلك، فدافع داخلى إلى التعبير آت من منطقة فى النفس هى فوق مطال العقل ومعطيات الحواس. لذلك ظل محتوماً على فن عارف الريّس ألا يقف عند أسلوب واحد أو قناعات تشكيلية نهائية، بل أن يتبدل بجرأة وأن يتطور، وفق ذلك الدافع الداخلى وتبدل ما يمر به ويطرأ عليه من تجارب، إلا أن الذى لم يتبدل عند عارف الريّس ولا يتبدل فهو هويته الفنية المتجددة فى هذه البقعة المشرقية من الأرض، والباقية فى روحها مشرقية على ما انفتحت عليه واستفادت به من تجارب فى سائر التراثات العالمية.

مع عارف الريّس المتجدد بشكل دائم عبر الكلمة واللوحة والحجر، عدته ريشة وفرشاة وأزميل وعقل مبدع خلاق، كان هذا الحوار:

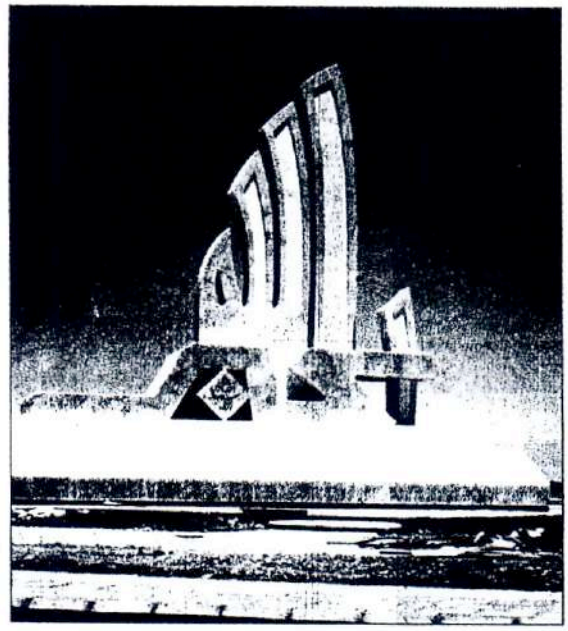

عارف الريّس، أين أنت اليوم، بين عالم الريشة، والأزميل والفرشاة، أى بين الكلمة والحجر واللون؟

– أعيش، بين رسم الكلمة ورسم الشكل والإشارات والخطوط، فى وحدة متوقعة، وخاصة أن والدى ووالدتى وشقيقى وشقيقتى قد رحلوا تاركين أطيب الآثار والشوق الذى يعيشه كل إنسان. يبقى الفن والتعامل مع البعد الآخر الذى يلهم كلاً منا إلى ما يشغل عقله وعالمه الحسى الخاص؛ هذا التعامل مستمر يومياً، تارة بالأسود والأبيض وتارة أخرى بالألوان. وقد أسعدنى الحظ بأن بعض كتبى قد طبع، وكل واحد منا يدرك بداية العمل ونهايته والبحث عن جديد ليملأ الفراغ.. فراغ الوقت، وهذا يعنى فى أكثر الأحيان تراكم الانطباعات والأفكار الجديدة التى تتساق بطريقة عفوية فى عالم الإنسان الذى لم ينقطع عن الإنتاج منذ أول التاريخ ويستمر.. ونستمر معه!

فى الوقت الحاضر أنا منشغل بإنتاج رسم من أسود وأبيض فى زمن المكننة وسرعة الإنسان أو الإنسان والسرعة والزمن، كل هذه أفكار، لا أريد بعدها أن أزيد على الإدمان المهنى الذى يسيطر على كل من يتعامل مع جميع أنواع الفنون.

وأنا اليوم أقر وأعترف بأن هناك شيئاً آخر وهو أن الأفق أمامى كان فى السنوات الماضية أبعد مما هو عليه اليوم، وأشعر أننى غداً أو بعد غد سأغطس كما تغطس الشمس عند المغيب. وأنا أفرح بأننى لم أتوقف عن العمل والإنتاج على الرغم من الظروف الصعبة والمحيطة التى مرّ بها لبنان ويمر بها الشرق الأوسط.

أياً من دول الشرق الأوسط تقصد بالتحديد؟

– بين لبنان وفلسطين والعراق مأساة إنسانية نتيجة «الكرم العولمى»، الذى يروج له الكاوبوى الأميركى.. وتأثرى يتعمق عند مشاهدة الدمار والخراب وقتل الأبرياء هنا وهناك، ويشتد حزنى لأن التطور العلمى والصناعى لم ينقل طبيعة الإنسان الشريرة إلى النوعية التى طوّر بها الإنسان الطاقات على مختلف أنواعها من تحت الأرض ومن فوق الأرض.

ومن المؤسف أننا ننتقل من محنة إلى محنة أكبر باسم العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان والسلم الشامل لعولمة العالم وهو عالم لا يحتاج إلى عولمة.

نحن أمام أسماء جديدة لمضمون واحد: شراسة الاستعمار وفحولة الأقوياء.

أنت من الرعيل الثانى من الفنانين، ما هو شعورك من خلال مرافقتك للحركة الفنية فى لبنان؟

– يشهد لبنان على الصعيد الفنى تطوراً خيراً فالأكاديميات الفنية فى الجامعة اللبنانية، والجامعات الأخرى خرجت حتى الآن ما يزيد على ألف وخمسمائة رسام ونحات وممثل

حوار: جورج شامى

ومخرج وهؤلاء جادون فى البحث والتفتيش عن شخصيتهم باقامة معارض لا تنقطع طوال السنة وفى جميع أنحاء لبنان.

وعلينا أن نعترف بأن بيروت لم تعد وحدها نقطة الجذب الأقوى.

من هنا أشعر بأن رعيلنا مكّن الحركة الفنية على قاعدة ثابتة لتطوير الفن وستدخل هذه الحركة فى انحناء التراث اللبنانى.

هناك مظاهر حوارية جديدة تختلف فى ماهيتها عن مناخنا ولكننا نجد أنفسنا متأثرين بها، فما هو سبب ذلك فى رأيك؟

– لا شك أن هناك صعوبة عديدة بالنسبة للمظاهر الحضارية الجديدة التى نطلع عليها ولكن مناخها العلمى والفكرى بعيد عن مناخنا الطبيعى اللبنانى وعفوية الإنسان عندنا، هذا الإنسان المنشغل دوماً بقلبه وقالبه ككل إنسان آخر فى كل مكان.

ولا شك فى أن إنسان الألفية الثالثة يواجه معاناة كبيرة قد تؤثر على كل جهازه إلى حد الانفصام الذاتى. وفى الحقيقة أن المعاناة ومعظم الأمراض المعاصرة ناتج عن إرهاق الأعصاب والضغوطات الحياتية التى تزرع على عاتق المعاصرين. وعلينا أن نعترف أن من نتائج هذه الضغوطات الاقتصادية العالمية، بعد انهيار الاتحاد السوفياتى الذى كان هدف الرأسماليين الكبار فى العالم، كان المساعدات المادية لتجار الفنون والآداب من غاليريهات ودور نشر قد توقفت وكان من نتيجة ذلك إفلاس ستمائة وخمسين غاليرى فى العالم، وهذا يعنى أن عدداً كبيراً من الفنانين الذين كانوا يعتمدون فى عيشهم على هذه الغاليريهات باتوا مطروحين فى سوق المجاعة، وتوقفوا عن الإنتاج وانعدمنا البحث والتطوير والإبداع. على أية حال هذه ليست أول ولا آخر مأساة اقتصادية تهز المطمئنين إلى مواهبهم.

فى هذه المرحلة بالذات، ماذا كان دورك فى سمبوزيوم عالية؟

– لقد أسعدنا الحظ فى عالية، ببلدية يترأسها ذواقة للفن، وقد تمكنا بالتعاون معه ومع الجمعية اللبنانية للرسم والنحت بأن نقيم سمبوزيوم على صعيد عالمى. والمفرح أنه فى هذه المرحلة بالذات لبى الفنانون من جميع أنحاء العالم دعوتنا وأحيينا على مدى أربع سنوات أربع مظاهرات نحتية، مما ترك لنا أعمالاً يزيد عددها على ثلاثمائة منحوتة معروضة فى الهواء الطلق فى مختلف أنحاء المدينة ورأس الجبل بالذات.

لكل فنان أسلوب ولكن أساليبك تتجدد دوماً، فما هى العوامل التى تحركك؟

– منذ بداية سنواتى الأولى عندما توجهت العام ١٩٤٩ إلى باريس والتحقت بمعهد الفنون الجميلة فى الساحة الفرنسية تذكرت أستاذ الصرف والنحو ومبادئ اللغة العربية الذى كان يفرض علىّ أن أرسم الفتحة والضمة والسكون والفاصلة والنقطة وعلامة التعجب وعلائة الاستفهام، تذكرت هذا كله أمام جسد الموديل العارى، وهى تبدل من أوضاعها حتى نتمكن من دراسة الجسد البشرى ونحن نرسمه.

وفى الحقيقة أن جسد الإنسان قلعة للقيم. فهو عمودى يرتفع على عمودين، أعضاؤه الأساسية خمسة. حواسه خمس. أصابعه عشرة ومفاصله طيعة. وهذا كله يدخل فى حركة التأليف منذ أبد الآبدين وأهم من هذا وذاك الكلمة والرسم إجمالاً. ولكن القواعد الأكاديمية تدرس الأحجام والنسب والجمالية لوناً والحركة شكلاً بدون أن تحدد حرية الفنان فى التعبير أى الاختيار الذى يتناسب وخيال الفنان وهواجسه، وقد يكون للأحلام الواعية دور مهم فى الإبداع، وعندما نحدد هذه النقطة لابد من ربطها بالحاضر أى بالعصر وحركته الإبداعية وإبداعاته الصناعية.

لذلك كان تأملى خجولاً فى بداية تجربتى فانسحبت من الأكاديمية وأخذت أزور المتاحف ودخلت محترفات حرة لأساتذة معاصرين مشهورين، حيث التعامل أكثر صراحة وأقل تشنجاً من الأستاذ الأكاديمى المقيد ببرامج وتصورات رسمية لا يمكن أن نحيد عنها.

وكانت باريس فى هذه المرحلة شعلة ملتهبة تجذب إليها جميع فنانى العالم، ومازالت باريس إلى اليوم أم الفنون والثقافة العامة، ولا غرو فالحضارة الفرنسية حضارة أصيلة ويشترك فيها العقل مع جانب الحس والمسؤولية فى رسالة تطور الإنسان وتغنى أجواءه الفكرية، ولا أحد ينكر أن المنطق الفرنسى منطق عقلانى أكثر منه إنسانياً بأبعاد الإنسان حيثما كان.

واستمر التسكع تسع سنوات قضيتها بين أفريقيا الفرنسية (السنغال) إلى جانب والدى المهاجر وباريس (سان جيرمان ومونيارناس ومونمارتر) والمعارض المتتابعة. واعتمدت العمل الشخصى بدون موجه، مستلهماً الأجواء الفنية المتجددة دوماً فى كل باريس.

تصميم لنصب عن أرواح شهداء ١١ سبتمبر «أيلول» فى نيويورك

ودرست فى هذه المرحلة التمثيل الإيمائى مع «إيتيان دوكرو» وهو من الرعيل القديم وكان له دور مهم فى التأكيد على أننى رسام ونحات ولا يجب أن أضيع وقتى فى المسرح والتعاون مع جمهور مزاجى سخيف يمكنه أن يقصفك بالبيض والبندورة عندما يرفض لك مسرحية ما.

ودعانى لأن أستمر بالحضور إلى محترفه لأقوم بالرياضة البدنية ولأكون فى مجموعة البشر الذين يهمهم الفن حتى لا أتعب من الوحدة فى باريس الغابة البشرية الكبيرة.

وأخذ بدوره يعرفنى على فنانين وكتاب وأدباء ورجال فكر يمكنهم أن يساعدونى فى توضيح التعقيدات الجمالية التى يختارها الفنان أمام لوحته البيضاء.

وهكذا كانت واستمرت بى الحال حتى اليوم وأنا أتعامل مع الفكرة باحثاً تطبيقياً بالورقة والقلم والألوان عن كيفية التعبير عنها، ومن هنا تنوع إنتاجى لأنه جاء جواباً على تفاعلات وأفكار وليس إلزاماً بأسلوب مقبول ومعترف به تقليدياً.

ومن ثم دخلت فى مرحلة معينة من الزمن إلى معاناة التراث التشكيلى العربى لتحديد هويتنا العربية، وهنا كانت المرحلة صعبة لأن الإسلام لم يسمح بالتشكيل التشبيهى، مع العلم أن الفن البيزنطى قد أوحى للفنانين الغربيين بأعمال عصر النهضة الأوروبية، والتراث الفرعونى والآشورى البابلى قد أوحى بدوره للعالم بأجمعه بالانتماء إلى عالم الأسطورة والخرافة.

وهذا يعنى أننا موجودون فى العالم الفنى، وكما انتقلت المسيحية وأسست حضارات انتقل الإسلام إلى شعوب بعيدة عن القدس وعن مكة المكرمة.

ولكن من من كتابنا ومؤرخينا كتب عن هذا؟ وهنا بيت القصيد، أى أن بيتنا مهجور وسكانه غرباء يتحكمون بكل ما وجدوه فيه من خيرات وأبعاد وآفاق، ونحن لم يلفت انتباهنا أحد إلى هذه النقاط لأن برامجنا التعليمية فى الشرق العربى مقتبسة من البرامج الأوروبية ويشعروننا بسيادة الفكر الغربى والفكر الأوروبى ونحن أتباع مع مركب نقص.

طبعاً اجتزنا هذه المرحلة كمجموعات درست فى الغرب وعادت إلى ديارها تنتج وتجتهد، فالحركة الفنية بالإجمال بألف خير فى هذه المرحلة واجتيازاتها إيجابية وواعية لوجهنا الحضارى منذ أن بدأ الإنسان فى بداية التاريخ بالتعامل مع نفسه والتعبير عن تصوراته التى نقرأها فى الآثار المبنية والمتروكة.

عارف الريّس، أنت كتبت ونحت ورسمت وناضلت، لو طُلب منك أن تقيّم نفسك فأى الألوان الإبداعية تختار؟

المركز العربي للمعلو

– طبعاً كتبت ورقصت ومثلت وتظاهرت وتعاطيت العمل السياسي ولكنني كنت دوماً مخلصاً إلى محترفي لأرسم وأنحت. فالرسم والنحت كانا المحجة التي تركع كل قواي أمامها وترتاح نفسي للتعامل معها ومازلت.

لقد رسمت وكتبت بعفوية عن مشاغل ذهنية، أما حاجتي للتعبير فهي قصة لن تنتهي بين الفنان والوسائل المتاحة من الكلمة إلى اللون إلى الشكل والألحان، وأزيد الكولاج للأخبار العامة.

لست كاتباً محترفاً، فأنا أرسم وأنحت فقط. أكتب لأخرج من نفق الوحدة بيني وبين أعمالي الفنية.

أشعر بأن طباعة كتبي هي أجمل هدية لي وخاصة الكتاب الأخير «الأيام الرمادية» لأنه يمثل مراحلي الفنية وأفكاري التي كثيراً ما تجولت همساً في مخيلتي أمام الواقع التشكيلي.

لقد اجتزت هنا الحيرة التي كانت تنتابني من وقت إلى آخر عندما أنتقل من الرسم إلى الكلمة والعكس بالعكس.

أتساءل: هل نفهم ما نقول ويقال لنا؟ الجميع يجيب : نعم، نفهم. لست مقتنعاً بذلك أمام الحروب والإرهاب والفوضى المنظمة التي يعيشها العالم المتطور علمياً وصناعياً!

بين الغناء ومكاسب الحياة المادية مسافة مملوءة بالوجع، ومع ذلك فالبقاء مستمر عبر طرح الأفراح والأحزان.

أعيش هذه المرحلة بين طلابي القدامى والذين هم فنانون لهم تجاربهم الخاصة وإنتاجهم الجديد ولهم أيضاً وجهات نظرهم يؤكدون عليها. نحن عندنا كل سنة ما يزيد على المائة طالب يتخرجون في جميع المعاهد في لبنان من الشمال إلى الجنوب فالبقاع.

ويسعدني عندما أنتقل من معرض إلى معرض لمشاهدة أعمال الفنانين المعاصرين وأتبادل معهم الأفكار ومع جمهور جديد أيضاً من هواة الفنون الجميلة، هذا يبعث على التفاؤل تأكيداً على استمرار النشاط الفني الذي دخل أيضاً جميع البلدان العربية بأسلوب جدي ومدعوم من الهيئات الرسمية والجمهور العربي، فالتطور يدخل من نافذة كبيرة وهذا هو وجه العولمة الحقيقي. ■